أثر القيم الاجتماعيّة للتسامح الدينيّ

في حياة أبي إسحاق الصابي وأدبه (ت٣٨٤هـ)

إعـداد

دكتور/ علاء الدين زكي موسى

أستاذ مساعد فئة(أ) نائب عميد كلية الآداب-

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الزيتونة الأردنيّة

١٤٤٦ هـ- ٢٠٢٤م

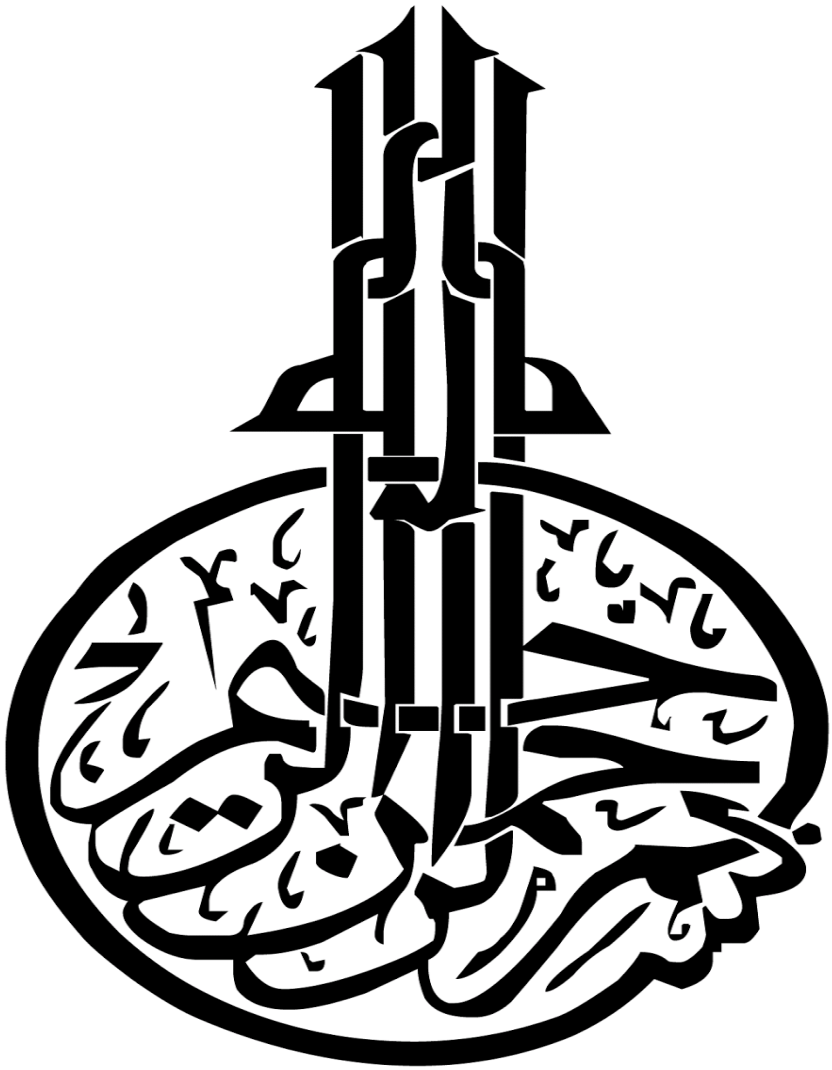

أثر القيم الاجتماعيّة للتسامح الدينيّ في حياة أبي إسحاق الصابي وأدبه (ت٣٨٤هـ)

علاء الدين زكي موسى
قسم اللغة العربية – جامعة الزيتونة – الأردن
البريد الإلكتروني:
DR.aladeenz@yahoo.com

الملخّص:

يتغيّا هذا البحث إبراز أحد مظاهر الحضارة الإسلاميّة المشرقة، وهو: التسامح الدينيّ، وأثر قيمه الاجتماعيّة في حياة أبي إسحاق الصابي وأدبه (ت٣٨٤هـ)، والأديب أبو إسحاق الصابي أحد كبار الكتّاب والشعراء العبّاسيّين، الذين عاشوا في كنف الإسلام، وتنعّموا بتسامحه وعدله، ففاضت أقلامهم في التعبير عن معاني التسامح، والمحبّة، والإخاء الإنسانيّ.

لقد كان أبو إسحاق الصابي علىٰ دين الصابئة، مشدِّداً في دينه، يعبد الكواكب والنجوم، ولم يمنعه ذلك أن يكون علىٰ رأس ديوان الرسائل! وكان يعاشر المسلمين أحسن عِشرة، ويشاركهم صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظًا يدور علىٰ طرف لسانه، وسنّ قلمه! ولا شكّ في أنّ حسن عِشرة المسلمين له، هي التي دفعته إلىٰ المعاملة بالمثل.

وخلص هذا البحث إلىٰ أنّ التسامح الدينيّ عنوان للاعتراف بالآخر، وعنوان لتحضّر الإنسان، يقاس بمدىٰ احترامه لأخيه الإنسان، وأنّ البيئة الإسلاميّة، التي عاش فيها أبو إسحاق الصابي، وأذنت له بمثل هذا الخوض في معتقداتها وأسسها المقدّسة، لبيئة جِدّ متسامحة! وبيئة جِدّ متحضّرة!

الكلمات المفتاحية: القيم الاجتماعيّة – التسامح الدينيّ –أبو إسحاق الصابي .

The impact of social values of religious tolerance on the life and literature of Abu Ishaq al-Sabi (d. 384 AH)

Alaa El-Din Zaki Moussa
Department of Arabic Language – Al-Zaytoonah University – Jordan
Email: DR.aladeenz@yahoo.com

Abstract:

The aim of this research is to highlight one of the bright aspects of Islamic civilization, which is: religious tolerance, and the impact of its social values on the life and literature of Abu Ishaq al-Sabi (d. 384 AH), and the writer Abu Ishaq al-Sabi is one of the great Abbasid writers and poets, who lived under the confines of Islam, and enjoyed its tolerance and justice, so their pens overflowed. In expressing the meanings of tolerance, love, and human brotherhood.

Abu Ishaq al-Sabi was a follower of the Sabian religion, strict in his religion, worshiping the planets and stars, and that did not prevent him from being at the head of the collection of letters! He was the best friend of Muslims, participated in the fasting of the month of Ramadan, and memorized the Qur'an at the tip of his tongue and the tip of his pen! There is no doubt that it was his good treatment of Muslims that prompted him to reciprocate.

This research concluded that religious tolerance is a sign of recognition of the other, and a sign of human civilization, measured by the extent of his respect for his fellow man, and that the Islamic environment, in which Abu Ishaq al-Sabi lived, and which allowed him to delve into its sacred beliefs and foundations, was a very tolerant environment! And a very civilized environment!

Keywords:

social values - religious tolerance - Abu Ishaq al-Sabi .

مقدّمة:

حظيت حضارتنا العربية الإسلامية، بصور إنسانية مشرقة كثيرة، تؤكد أن التسامح الديني جزء من طبيعة الإسلام، لم يكن ليغيب عن ثقافة المسلم في سلمه، ولا في حربه- وهو أحوج ما نحتاج إليه اليوم في مجتمعاتنا العربية المعاصرة- وقد استوقفتني تلك الصداقة التي وثّقها الأدب العربي في العصر العباسي، بأحداثها الكثيرة، وعبرها الأثيرة، بين الإمام أبي الحسن الموسويّ (الشريف الرضي)، والأديب إبراهيم بن هلال (أبي إسحاق الصابي)، صداقة بُنيت علىٰ روح المحبّة والسماحة والفضل، وكُتب لها أن تعيش بعمرَيهما، ويبقىٰ ذكرها شاهداً حضاريّاً مقروناً باسمَيهما، وقد وُثّقت في الكثير من جوانبها شعراً ونثراً، لأديبين كبيرين مبرّزين، من كبار الأدباء العبّاسيّين.

وقادتني هذه الظاهرة الإنسانية الأدبية السمحة، بين هذين الأديبين، إلىٰ استجلاء أسبابها، واستدعاء حيثياتها، والكشف عن أبعادها الجمالية، التي ميّزتها بكثير من الخصال، جعلتها تُذكر عند كل مثال: عبرة واعتباراً، ذوقاً وتذوّقاً، شهادة واستشهاداً.

ولعلّ بحثي هذا يتقن الإجابة عن الأسئلة المحوريّة الآتية:

- هل للتسامح الديني تأصيل في حضارتنا الإسلاميّة؟ وما هي صوره؟
- ما هو أثر القيم الاجتماعية للتسامح الديني في حياة أبي إسحاق الصابي؟ وما هي شواهده؟
- كيف أثّرت القيم الاجتماعية للتسامح الديني في أدب أبي إسحاق الصابي، شعراً ونثراً؟

- لماذا عَدّ كثير من النقّاد العلاقة بين الشريف الرضي وأبي إسحاق الصابي، وما نتج عنها من موروث أدبي، ثمرة من ثمار التسامح الديني؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، اقتضىٰ البحث اتباع المنهج الاستقرائي التحليلي، بتتبع شواهد ظاهرة التسامح الديني، وتحليل دلالاتها، فيما وصل إلينا من شعر أبي إسحاق الصابي، ونصوص رسائله، وما روي عنه من أخبار وآثار في المصادر الأدبية خاصّة، والمصادر التاريخية عامة. كما سيتبع البحث المنهج المقارن، في نقد الرسائل الشعرية والنثرية، المتبادلة بين أبي إسحاق الصابي والشريف الرضي.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، كما يأتي:

تمهيد: التسامح الديني عنوان الحضارة الإسلامية

المبحث الأول: أثر القيم الاجتماعية للتسامح الديني في حياة أبي إسحاق الصابي.

المبحث الثاني: أثر القيم الاجتماعية للتسامح الديني في أدب أبي إسحاق الصابي.

المبحث الثالث: ثمرة التسامح الديني في حياة أبي إسحاق الصابي وأدبه.

الخاتمة: وهي تتضمن خلاصة البحث ونتائجه.

والله وحده الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

التمهيد: التسامح الديني عنوان الحضارة الإسلامية

التسامح الدينيّ عنوان الحضارة الإسلاميّة؛ ذلك أنّ موقف الإسلام من النّاس، لا يختلف ابتداء، ولكنّ مواقف النّاس منه هي التي تختلف، ومن ثمّ تحدّد له منهاج معاملتهم، والتعايش معهم، ذلك المنهاج القائم علىٰ تسامح الإسلام مع الآخر، أيّا كان معتقده أو دينه، وهذا التسامح فضيلة حضاريّة، وهو من أعظم ما تميّزت به الحضارة العربيّة الإسلاميّة، التي اهتمّت بـ " حقوق الإنسان، والعناية بإنسانيّته، بغض النّظر عن عقيدته، أو لونه، أو جنسه، أو مركزه الاجتماعيّ "[1].

وعند النظر في الكتاب العزيز والسنة المطهّرة، نجد أدلّة التسامح الدينيّ الإسلاميّ حاضرة وافرة، دقيقة عميقة، وسوف أعرض لآية واحدة وحديث شريف واحد، نموذجين واضحين ناصعين لحقوق غير المسلمين في ظلّ الحضارة الإسلاميّة: قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]، ورد أنّ سبب نزول هذه الآية أنّ بعض نساء الأنصار في المدينة، كنّ قبل الإسلام ينذرن عند قلة الولد أن يهوّدن أولادهنّ، فلمّا جاء الإسلام وأجليت بنو النضير من اليهود، كان فيهم بعض أبناء الأنصار، فأراد آباؤهم أن يردّوهم إليهم، وأن يحوّلوهم عن دين اليهود، فنزلت الآية في تحريم إكراه غير المسلم علىٰ اعتناق الإسلام، وترك حرّيّة الاختيار له، بمحض إرادته، إن شاء أسلم، وإن شاء بقي علىٰ دينه وملته![2].

وقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : " ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة "[3]؛ وبهذا يحرم الاعتداء علىٰ الذمّيّ، سواء أكان الاعتداء معنويّا أم ماديّا، مثلما يحرم

ذلك بين المسلمين أنفسهم، سواء بسواء، " وقد بلغ الفقهاء في حماية غير المسلم في عرضه، والعرض كما هو معلوم موضع الذمّ والمدح من الإنسان، أن قالوا : إنّ الذمّيّ يجب له ما يجب للمسلم، فإذا حرمت غيبة المسلم، حرمت غيبة الذمّيّ، بل ظلم الذمّيّ أشدّ ؛ لأنّ ظلم الضعيف أشدّ حرمة من ظلم غيره "[٤].

كما يحرم الاعتداء علىٰ أموال أهل الذمّة، لا فرق في تحريم الاعتداء علىٰ هذه الأموال بين أن تكون متقوّمة عند المسلمين، أو غير متقوّمة كالخمر والخنزير، وهذه الحالة هي أعلىٰ درجات التسامح، بأن " لا تضيّق علىٰ المخالفين فيما يعتقدون حِلَّه في دينهم أو مذهبهم، وإن كنت تعتقد أنّه حرام في دينك أو مذهبك، وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمّة، إذ ارتفعوا إلىٰ الدرجة العليا من التسامح "[٥].

وهذا الرقيّ في التسامح تفوّق حضاريّ للإسلام ؛ " لأنّ غير المسلم يمكنه أن يستعيض عن لحم الخنزير بغيره من اللحوم، ويمكنه ترك شرب الخمر، رعاية لرغبة الأكثريّة من المسلمين، ولكن الإسلام علّم أتباعه أن يتركوا الناس وما يدينون، وهذا يسبق المبادئ الديمقراطيّة إلىٰ حدّ كبير، لأنّه لا يحكّم الأغلبيّة علىٰ الأقليّة ! بل يندب المسلمين إلىٰ التسامح مع غير المسلمين، الراغبين بأن يكونوا مواطنين في الدولة الإسلاميّة، وذلك بأن يعطوهم ما أمكنهم في عقد الذمّة، ليفهموا أنّ في دين الإسلام سماحة، وليعلموا الإسلام عن قرب ؛ ممّا يدعوهم لقبوله "[٦].

ولعلّ التاريخ الإسلاميّ، منذ قيام الدولة الإسلاميّة الأولىٰ، بدستورها الماثل في وثيقة المدينة، خير شاهد علىٰ التسامح الدينيّ في الحضارة الإسلاميّة[٧]، الأمر الذي أقرّ به حتىٰ أعداء المسلمين، وعدّوه ميزة وفضيلة، وعملوا علىٰ تقليده في السلم والحرب، وبذا كان المسلمون قدوة للآخرين، وكانت حضارتهم قِبلة الحضارات والثقافات[٨] .

وفي الحضارة العبّاسيّة – في القرن الرابع الهجريّ خاصّة، الحقبة التي عاش فيها أبو إسحاق الصابي – تمتع أهل الذمّة بكثير من ضروب التسامح الدّينيّ ؛ إذ كان في الدّولة الإسلاميّة ما يضمن لكلّ ديانة من ديانات أهل الذمّة كيانها الخاصّ، فأقاموا شعائرهم الدّينيّة في أمن وسلام، وشاركوا المسلمين في وظائف الدّولة، وفي ممارسة المهن الحرّة كافة (٩).

وهكذا، كان التسامح الدينيّ عنوانا للحضارة الإسلاميّة، تلك الحضارة الربّانيّة، الراقية في تعاملها مع غير المسلم، إذ تنظر له نظرة إنسانيّة ؛ " فهو من خلق الله الواحد الأحد، وحريّ به أن يصبح مسلما، فيتآخىٰ مع المسلم، وإذا أقام في بلاد المسلمين، فعليهم أن يخفروا ذمّته، وأن يطلقوا له حرّيته ... وليست النّصوص الدّينيّة هي التي تشهد بما نقول فحسب، فالمستشرقون والوقائع تشهد بذلك "(١٠)، وفي حياة أبي إسحاق الصابي وأدبه، ما يشهد بذلك أيضا!.

المبحث الأوّل:

أثر القيم الاجتماعية للتسامح الديني في حياة أبي إسحاق الصابي

عاش الأديب أبو إسحاق الصابي (٣١٣ - ٣٨٤هـ)[١١] في القرن الرابع الهجريّ، في ظلّ الحضارة الإسلاميّة العبّاسيّة، حياة حفظت عليه وعلىٰ إخوانه الصابئة دينهم وعقيدتهم التي يعتنقون، فقد كُتب لهم كتاب عن أمير المؤمنين المطيع لله، أقرّ فيه إلىٰ جانب صيانتهم، وحراستهم، والذبّ عن حريمهم، ورفع الظلم عنهم، ونحو ذلك، التخلية بينهم وبين مواريثهم، وترك مداخلتهم ومشاركتهم فيها، لأنّه لا يجوز في حكم الإسلام، أن يتوارث أهل ملتين[١٢].

لقد كان أبو إسحاق الصابي من نسّاك الصّابئة، متشدّدا في صابئيّته [١٣]، و"يحكىٰ أنّ الخلفاء والملوك والوزراء أرادوه كثيرا علىٰ الإسلام، وأداروه بكلّ حيلة، وتمنية جليلة، حتىٰ إنّ معزّ الدولة (بختيار) عرض عليه الوزارة إن أسلم، فلم يهده الله للإسلام، كما هداه لمحاسن الكلام، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويخدم الأكابر أرفع خدمة، ويساعدهم علىٰ صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظا يدور علىٰ طرف لسانه، وسنّ قلمه " [١٤] .

ويروىٰ أنّه حضر مائدة الوزير المهلبيّ، " فامتنع عن الأكل، لباقلاء كانت عليها، لأنّه محرّم علىٰ الصابئة كيفما كان من السمك ولحم الخنزير ولحم الجمل وفراخ الحمام والجراد، فقال له المهلبيّ : لا تبرد[١٥] وكل معنا من هذه الباقلاء، فقال : أيّها الوزير، لا أريد أن أعصي الله في مأكول، فاستحسن ذلك منه " [١٦].

نستنتج من هذه النصوص التسامح الدينيّ الكبير الذي حظي به الصابئة، وعلىٰ رأسهم أبو إسحاق، في الحضارة الإسلاميّة، إذ لم يجبره أحد من الخلفاء والملوك والوزراء علىٰ اعتناق الإسلام، وهم قادرون علىٰ ذلك ! لا بل رغبوه، وتودّدوا إليه،

وعندما أبىٰ لم ينقصوه حقه، بل اعترفوا بفضله وأدبه وعلمه، وجعلوه علىٰ رأس ديوان الرسائل ! [١٧]، وما أجمل استحسان الوزير المهلبيّ لمحافظة أبي إسحاق الصابي علىٰ شعائر دينه، برفضه أكل الباقلاء، التي لا حرج في أكلها عند جميع المسلمين، ولا شك في أنّ هذه المعاملة الحسنة، هي التي دفعته إلىٰ المعاملة بالمثل، فإذا بنا نجده يحسن عشرة المسلمين، ويحترم شعائر دينهم، ذلك الدين المتسامح، الذي يقرّر بأنّ " الإنسان كائن حرّ، مختار في هداه وضلاله "[١٨] .

وقد توثقت الصلة بين أبي إسحاق الصابي وكثير من رجالات عصره من المسلمين، أبرزهم : الوزير المهلبيّ، والصاحب بن عبّاد، والشريف الرضيّ [١٩]، وكانت هذه الصلات الحميمة شاهدا ناصعا علىٰ التسامح الدينيّ، في ظلّ الحضارة الإسلاميّة .

فهذا الوزير المهلبيّ " لا يرىٰ إلا به (أي بأبي إسحاق) الدنيا، ويحنّ إلىٰ براعته، وتقدّم قدمه، ويصطنعه لنفسه، ويستدعيه في أوقات أنسه " [٢٠]، وليس أدلّ علىٰ محبّة المهلبيّ لصديقه الصابي، وتكرمته إيّاه، من هذا الخبر الذي يرويه الصابي نفسه، عندما جاءه المهلبيّ معزيّا له بوالده .

يقول الصابي : " لمّا توفي أبو الحسين هلال أبي، جاءني أبو محمّد المهلبيّ معزيا به، فحين عرفت خبره في تعديته إلىٰ مَشْرَعَة داري الشاطئة بالزاهر، بادرت لتلقيه، واستعفائه من الصعود، فامتنع من الإجابة إلىٰ ذلك، وصعد وجلس ساعة يخاطبني فيها بكلّ ما يقوّي النفس ويشرح الصدر، ويصف والدي ويقرظه لي، ويقول: ما مات من كنت له خلفا، ولا فقد من كنت منه عوضا، ولقد قرّت عين أبيك بك في حياته، وسكنت مضاجعه إلىٰ مكانك بعد وفاته، فقبّلت يده ورجله، وأكثرت من الثناء عليه، والدعاء له ... ثمّ نهض، وأقسم علينا ألا يتبعه أحد منّا، وأنفذ إليّ في

بقيّة ذلك اليوم خمسة آلاف درهم، وقال : استعن بها علىٰ أمرك . ولم يبق أحد من أهل الدولة إلا جاءني بعده معزيا . ثمّ اجتاز بي من الغد في طيّاره[٢١]، ووقف واستدعاني وأمرني بالنزول معه، فبعد جهد ما تركني بقيّة اليوم "[٢٢]. والمتأمّل في هذا الخبر يدرك مقدار تلك المحبّة بين ذلكما الرجلين، ومقدار ذلك التسامح بين تلكما الديانتين .

وهذا الصاحب بن عبّاد يكنّ أواصر المحبّة والوداد لصديقه الصابي، ويعجب بعلمه وأدبه فيقول : " كتّاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه " [٢٣]. وقد كان يكرمه ويهدي إليه، وكان بينهما مكاتبات ومراسلات إخوانيّة شعريّة ونثريّة[٢٤]، ومن لطيف ما قيل في علاقتهما الحميمة :

تعانقتْ أغصانُ بانٍ بالحِمَىٰ ... فأشبهتْ أعطافَ أحبابِي

ومُذ صبا قلبي صبا صاحِبِي ... آهٍ علىٰ الصاحبِ والصابِي[٢٥]

أمّا صداقة الشريف الرضيّ للصابي، فقد أفردت لها المبحث الثالث في هذه الدراسة، لأنها الثمرة الأنضج، والصورة الأبهج للتسامح الدينيّ .

وخلاصة القول في هذا المبحث أنّ الصابي عاش في ظلّ الحضارة الإسلاميّة، آمنا علىٰ دينه، متنعّما بتطبيق شرائعه، لم يتعرّض لأذىٰ في هذه السبيل، بل نال الحظوة والإكرام، حتىٰ وصل إلىٰ رئاسة ديوان الرسائل . والسؤال الآن : كيف أثْرَت وأثَّرَت الحضارة الإسلاميّة المتسامحة في نتاج هذا الأديب؟ ولعلّ في المبحث الثاني الإجابة الوافية الشافية.

المبحث الثاني :

أثر القيم الاجتماعية للتسامح الديني في أدب أبي إسحاق الصابي

إنّنا نستطيع أن نتلمّس آثار الحضارة الإسلاميّة، الفكر الإسلاميّ خاصّة، في جلّ ما وصل إلينا من أدب أبي إسحاق الصابي، وإن كان يظهر جليّا في رسائله الفنيّة، أكثر منه في شعره، وربّما يعود السبب في ذلك إلىٰ ضياع ديوانه، وقلة ما وصل إلينا من أشعاره، ثمّ أنّه كان رئيسا لديوان الرسائل، معنيّا بالكتابة الترسّليّة عن الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ والقضائيّ، في حضارة القرن الرابع الهجريّ، بصورة يتجلىٰ فيها التسامح والتراحم .

لقد كانت العهود والرسائل الصّادرة عن الحكّام، في ذلك الزمن، تتسامح مع النّصارىٰ، وتوصي بحسن معاملتهم ؛ لأنّهم أهل ذمّة مقيمين في أرضها، ومثال ذلك، العهد الذي كتبه أبو إسحاق الصابي عن الخليفة الطائع لله، وفيه يوصي جباة الجزية من أهل الذمّة، بأن يراعوا أحوالهم، ولا يكلفوهم فوق طاقتهم، ولا يأخذوا الجزية من النّساء، ولا الأطفال، ولا الشيوخ، ولا المرضىٰ، ولا الفقراء، ولا الرّهبان ! وفي ذلك يقول :

"وإلىٰ جباة جماجم أهل الذمّة، بأن يأخذوا منهم الجزية في المحرّم من كلّ سنة، بحسب منازلهم في الأحوال، وذات أيديهم في الأعمال، وعلىٰ الطبقات المطبّقة فيها، والحدود المحدودة المعدودة لها، ولا يأخذوها من النّساء، ولا ممّن [لم] [٢٦] يبلغ الحلم من الرّجال، ولا من ذي سنّ عالية، ولا ذي عاهة بادية، ولا فقير معدم، ولا مترهّب متبتل، وأن يراعي جماعة هؤلاء العمّال مراعاة يسرّها ويظهرها، ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها، لئلا يزولوا عن الحق الواجب، ويعدلوا عن السّنن

اللاحب[٢٧]، فقد قال الله عزّوجلّ : ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الإسراء: ٣٤]" [٢٨].

ويقول في عهد آخر، كتبه عن الخليفة المطيع لله : " وإلىٰ عمّال الجوالي[٢٩] بأن يستخرجوا في المحرّم من كلّ حول، من رجال أهل الذمّة البالغين الواجدين، جزية رؤوسهم علىٰ حسب احتمال أحوالهم، في وُجدهم وإعدامهم، وألا يأخذوا شيئا من النساء، ولا من الأطفال، ولا من ذوي العاهات، ولا من الشيخ الفاني، ولا من الفقير المعدم، وأن يراعيهم حتىٰ يمتثلوا ... "[٣٠].

صحيح أنّ الصابي يكتب ما يؤمر به في هذا المقام، ولكنّ هذه الرسائل والعهود تنسب إلىٰ قلمه، وتنبع من بنات أفكاره، وتعبّر عن التسامح الذي أريد له أن يكون، وأظنّ الجباة لو كلفوا بجمع المال من المسلمين، لأمر من أمور الدولة، لما استطعنا أن نزيد في الوصايا التي ذكرها الصابي شيئا !

والصابي في رسائله، يخوض في أمور العقيدة الإسلاميّة : صفات الله تبارك وتعالىٰ، والجنة، والنار، والبعثة النبويّة، والتوحيد، والشرك، نحو قوله :

" الحمد لله ربّ العالمين، الملك الحق المبين، الوحيد الفريد، العليّ المجيد، الذي لا يوصف إلا بسلب الصّفات، ولا ينعت إلا برفع النّعوت، الأزليّ بلا ابتداء، الأبديّ بلا انتهاء، القديم لا منذ أمد محدود، الدّائم لا إلىٰ أجل معدود، الفاعل لا عن مادّة استمدّها، الصّانع لا بآلة استعملها، الذي لا تدركه الأعين بألحاظها، ولا تحدّه الألسن بألفاظها، ولا تخلقه العصور بمرورها، ولا تهرمه الدهور بكرورها ... خلق فأحسن، وأسّس فأتقن، ونطق ففصّل، وحكم فعدل، وبرأ البرايا صنوفا وضروبا، وقسّمها فرقا وشعوبا، واختصّ منها النّاس بالألباب والأفهام، وفضّلهم علىٰ

الجمادات والأنعام، وأعدّ لمحسنهم جنّة وثوابا، ولمسيئهم نارا وعقابا، وبعث إليهم رسلا منهم، يهدونهم إلىٰ الصّراط المستقيم، والفوز العظيم، ويعدلون بهم عن المسلك الذميم، والمورد الوخيم .

فكان آخرهم في الدّنيا عصرا، وأوّلهم يوم الدّين ذكرا، وأرجحهم عند الله ميزانا، وأوضحهم حجّة وبرهانا، وأبعدهم في الفضل غاية، وأبهرهم معجزة وآية، محمّد صلىٰ الله عليه وسلم تسليما، الذي اتخذه الله صفيّا وحبيبا، وأرسله إلىٰ عباده بشيرا ونذيرا، علىٰ حين ذهاب منهم مع الشيطان، وصدوف عن الرحمن، وتقطيع للأرحام، وسفك للدماء الحرام، واقتراف للجرائم، واستحلال للمآثم، أنوفهم في المعاصي حميّة، ونفوسهم في غير ذات الله أبيّة، يدعون معه الشركاء، ويضيفون إليه الأكفاء، ويعبدون من دونه، ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئا، فلم يزل صلىٰ الله عليه وسلم، يقذف في أسماعهم فضائل الإيمان، ويقرأ علىٰ قلوبهم قوارع القرآن ... حتىٰ ضرب الحق بجِرانه[٣١]، وصدع ببيانه، وسطع بمصباحه ... فصلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الأخيار الطيّبين، الأبرار الطاهرين، صلاة زاكية نامية، رائحة غادية، منجزة عِدَته، رافعة درجته، قاضية حقه، مؤدّية فرضه "[٣٢] .

إنّ هذا النص الترسّليّ يماثل ما يكتبه علماء المسلمين، وأكابر كتابهم، حتىٰ قال ابن الأثير عن هذه التحميدة : إنّها " تصلح أن تكون في صدر مصنّف، من مصنّفات أصول الدين "[٣٣].

ولننظر إلىٰ الصابي كيف يوظف آيات القرآن الكريم توظيفا فنّيّا جميلا، يهدف إلىٰ إقناع المتلقين بالمعنىٰ الذي يُراد، وإمتاعهم بالبيان الذي أَراد، وذلك في ختام كلّ وصيّة في العهد الذي كتبه عن الخليفة الطائع لله، إذ عندما أوصىٰ بالتقوىٰ قال : " أمره بتقوىٰ الله التي هي العصمة المتينة، والجنّة الحصينة، والطود الأرفع، والمعاذ

الأمنع، والجانب الأعزّ، والملجأ الأحرز، وأن يستشعرها سرّا وجهرا، ويستعملها قولا وفعلا ... قال الله عزّ وجلّ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [سورة الطلاق:٢-٣]،. وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [سورة آل عمران:١٠٢]،. وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [سورة التوبة:١١٩]، إلىٰ آيٍ كثيرة "[٣٤].

وعندما أوصىٰ بتعهّد القرآن الكريم قال : "وأمره أن يتخذ كتاب الله إماما متّبعا، وطريقا مَهْيَعا[٣٥]، ويكثر من تلاوته إذا خلا بذكره، ويملأ بتأمّله أرجاء صدره، فيذهب معه فيما أباح وحظر، ويقتدي به إذا نهىٰ وأمر، ويستبين ببيانه إذا استغلقت دونه المعضلات، ويستضيء بمصابيحه إذا غمّ عليه في المشكلات، فإنّه عروة الإسلام الوثقىٰ، وحجّته الوسطىٰ ... قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [سورة فصلت:٤١-٤٢]."[٣٦].

وعندما أوصىٰ بالمحافظة علىٰ الصلوات قال: "وأمره بأن يحافظ علىٰ الصلوات، ويدخل فيها في حقائق الأوقات، قائما علىٰ حدودها، متبعا لرسومها، جامعا فيها بين نيّته ولفظه، متوقيا لمطامح سهوه ولحظه، منقطعا إليها عن كلّ قاطع لها، مشغولا بها عن كلّ شاغل عنها، متثبّتا في ركوعها وسجودها، مستوفيا عدد مفروضها ومسنونها ... قال الله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ﴿١٠٣﴾ [سورة النساء:١٠٣].، وقال عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [سورة العنكبوت:٤٥].(٣٧).

وعندما أوصىٰ بالمحافظة علىٰ صلاة الجمعة، وعمارة المصليات والمساجد قال: "وأمره بالسعي في أيّام الجمعة إلىٰ المساجد الجامعة، وفي الأعياد إلىٰ المصليات الضاحية، بعد التقدّم في فرشها وكسوتها، وجمع القوّام والمؤذنين والمكبّرين فيها، واستسعاء الناس إليها، وحضهم عليها، آخذين الأهبة، متنظفين في البزّة، مؤدّين لفرائض الطهارة ... قال الله في هذه الصلاة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [سورة الجمعة:٩].، وقال في عمارة المساجد : ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة التوبة:١٨].(٣٨).

وهكذا، رأينا كيف كان الصابي يتحدّث عن شعائر الإسلام وأخلاقيّاته، وكيف كان يحفظ القرآن الكريم، حفظا يدور علىٰ طرف لسانه، وسنّ قلمه، وفق تعبير الثعالبيّ . وقد تجلىٰ تأثر الصابي بالحضارة الإسلاميّة في شعره أيضا، وهذه بعض أبيات قالها مهنّئا بعيد الفطر(٣٩):

أسيّدنا هُنِّئْتَ نعماكَ بالفطرِ ... ووُقّيتَ ما تخشاهُ من نُوَبِ الدهرِ

مضىٰ الصومُ قد وفَّيته حق نسكه ... ووفّاك مكتوب المثوبة والأجرِ

كَلِفتَ بذكر الله فيه فلا تزلْ ... من الله فيما ترتجيه علىٰ ذكرِ

هجرت هجودَ الليلِ فيه تهجّداً ... وصبراً علىٰ طول القراءة للفجرِ

فلو نطقت أيّامنا باعتقادها ... لناجتك لفظاً بالدعاء وبالشكرِ

وللفطـــر رســـمٌ للســـرور وســـنّة ومثلـكَ مـن أحيـا لنـا سـنّة الفطـرِ

وممّا قاله مهنّئا بعيد الأضحىٰ[٤٠]:

صَـلِّ يـا ذا العُـلا لربّـكَ وانحَـرْ كـلُّ ضـدٍّ وشـانئ لـك أبتَـرْ

أنـت أعلـىٰ مـن أنْ تكـونَ أضـاحي كَ قرومـاً مـن الجمـالِ تعفّـرْ

بـل قرومـاً مـن الملـوك ذوي السـؤ دد تيجانُهـا أمامَـكَ تنثَـرْ

كلّمـا خـرّ سـاجداً لـك رأسٌ مـنهمُ قـال سـيفك : الله أكبَـرْ

إنّ المتأمّـل في المقطوعـة الأولـىٰ، لا يخطـئ تـأثر الصـابي الكبيـر بالألفـاظ والمصطلحات الشرعيّة الإسلاميّة، في كلّ بيت منها، مثل : عيد الفطر، والصوم، وحق النسك، ومكتوب المثوبة والأجر، وذكر الله، وهجود الليل، وقرآن الفجر، والدعاء، والشكر، وسنة الفطر .

أمّا المقطوعة الثانية فجاء فيها التناصّ و سورة " الكوثر " جليّا، حيث استثمر الصابي ألفاظ السورة الكريمة في بناء الصورة الفنيّة النموذجيّة العليا[٤١] للممدوح، مثل : صلّ لربّك، وانحر، وشانئ، وأبتر، بالإضافة إلىٰ لفظتي : أضاحي وساجد، وتكبيرات العيد : الله أكبر .

لقد بلغ التسامح الدّينيّ عند المسلمين، مبلغا أذن لرجل صابئ، بالحديث عن أمور العقيدة الإسلاميّة، وشرائع الإسلام، وأخلاقيّاته، ومعجزته الخالدة : القرآن الكريم، صحيح أنّه لا يطعن في ذلك، بل يؤكّده، ويحض عليه، " حتىٰ ليظنّه قارئه أحد المؤمنين بالإله الواحد، وبكتبه ورسله وقضائه وقدره "[٤٢]، ولكنّ مجرّد الخوض في هذا الغمار العقائديّ التشريعيّ الخطير، مظهر حضاريّ ينبغي التوقف عنده، والتنبيه إليه .

وإنّ بيئة يحيا بها مثل هذا الكاتب، وتأذن له بمثل هذا الخوض في معتقداتها وشرائعها، لبيئة جدّ متسامحة، وبيئة جدّ متحضرة !

المبحث الثالث:

ثمرة التسامح الديني في حياة أبي إسحاق الصابي وأدبه

لقد جوزي الصابي علىٰ موقفه الحسن من الإسلام أجمل جزاء، فصحّت له صداقة الشريف الرّضيّ، إمام الأشراف في عصره، ونقيب الطالبيّين، ودارت بينهما رسائل شعريّة ونثريّة، تفيض محبّة ومودّة وصدق إخاء، وهي بمجملها ثمرة ناضجة للتسامح الدّينيّ، لأنّها تربط الأواصر بين نقيضين : مؤمن (شريف) وكافر (صابئ)!

وقد اتسمت العلاقة بين هذين الصديقين بطابع الودّ والإخلاص، وكان للروح الأدبيّة المشتركة أثر كبير في توثيق الصلات بينهما، فقدّما لنا علاقة إنسانيّة وأدبيّة متميّزة، عبّر عنها الصابي بقوله في مديح الشريف الرضيّ(٤٣):

أبا كلِّ شيءٍ قيلَ في وصفهِ حسنْ ... إلىٰ ذاكَ ينحو من كناكَ أبا الحسنْ

يوحِّدها للاختصارِ إشارةً ... إلىٰ جملةٍ تفصيلُها لكَ مرتهنْ

تخوَّلتها في خِلْقَةٍ وخليقةٍ ... فإنْ لمْ تكنْ أنتَ الخليقَ بها فمنْ

أَلِكني إلىٰ ابنِ الموسويِّ ألوكةً ... بلا دَخَلٍ يدنو إليها ولا دَخَنْ

بأنّي مذ بايعتَني الودَّ جاعلٌ ... سواديَّ من قلبٍ وعينٍ لَهُ ثمنْ

فإنْ رُمْتَهُ من صادقٍ غيرِ ماذقٍ ... فدونكَ صدري مسكنًا تحته سكنْ

وجليّ في هذه الأبيات مبلغ حبّ الصابي للشريف الرضي، إذ جمع المحاسن كلها فيه، واستوطن ودادَه سويداء قلبه وعينه، وأسكنه فسيح صدره(٤٤)، وأمر آخر لا مندوحة عن ذكره، وهو الإشارة إلىٰ حق الشريف في الخلافة، كما في البيت الثالث، إذ " إنّ الصابي وهو الأديب، لا يحترم إلا من يتصف بهذه الصفة، ليتلقىٰ نفس الشعور منه عندما يتولىٰ المسؤوليّة، وقوي هذا الشعور منه عندما لمس في الشريف

طموحه إلىٰ الخلافة، وسعيه وراء تحقيقها، فكان الصابي يحرص أيضا علىٰ تحقيقها له، ويغذيه بهذه الفكرة "[٤٥].

وقد أجابه الشريف بقصيدة علىٰ الرويّ نفسه، عبّر فيها عن حبّه الكبير، وإخلاصه العميق، لهذا الصديق الوفيّ، قال فيها[٤٦]:

مَن مبلغ لي أبا إسحاقَ مألُكَةً ... عن حِنو قلبٍ سليمِ السرِّ والعلنِ
جرىٰ الودادُ لهُ منّي وإن بَعُدَتْ ... منّا العلائقُ مجرىٰ الماءِ في الغصُنِ
لقد توامَقَ قلبانا كأنّهما ... تراضعا بدمِ الأحشاءِ لا اللبنِ
إنْ يدنُ قومي إلىٰ داري فآلفهمْ ... وتنأ عنّي وأنتَ الروحُ في بدني
فالمرُ يسرحُ في الآفاق مضطربًا ... ونفسُهُ أبَداً تهفو إلىٰ الوطنِ
والبعدُ عنكَ بلاني باستكانِهِمِ ... إنّ الغريبَ لمضطرّ إلىٰ السكنِ
أنتَ الكرىٰ مؤنسًا طرفي وبعضهمُ ... مثلُ القذىٰ مانعًا عيني من الوَسَنِ

يدهشنا هذا التسامح الدينيّ، الذي جعل الشريف يعدّ الصابي الأخ في الدم،والروح في البدن، والسكن في الوطن، وزيادة علىٰ ذلك يقدّمه علىٰ بعض أهله، جزاء إخلاصه وعميق مودّته ! وبذا قدّم لنا هذان الصديقان " درسا في التسامح والتوادّ، ودليلا علىٰ أن السمات المشتركة التي يُبنىٰ عليها التقارب والتوادّ، يمكن أن تتخطىٰ عصبة الدين علىٰ ألا تخالفه " [٤٧].

وقد كان الصابي عارفا ومقدّرا لنسب الشريف الرضيّ، وهو القائل فيه[٤٨]:

ألا أبلغا فرعًا نَمَتْهُ عروقُهُ ... إلىٰ كُلِّ سامٍ للمفاخرِ بانِ
محمَّداً المحمود من آل أحمدٍ ... أبا كلِّ بِكْرٍ في العُلىٰ وعَوانِ
أبا حسنٍ قطَّعْتَ أحشاءَ حاسدٍ ... طواها علىٰ البغضاء والشنآنِ

فأجابه الشريف بقصيدة، أكّد فيها اصطفاءه إيّاه دون الكثير من الأصاحب والأقارب والإخوان، معلنا تمازج قلبيهما، في أخوّة إنسانيّة، قلّ لها نظير ! يقول الشريف(٤٩):

أقرّرُ في الإخوان عيناً صحيحةً ... على أعينٍ مرضىٰ من الشنآنِ
فلولا أبو إسحاق قَلّ تشبّثي ... بِخِلٍّ وضربي عِندَه بجِرانِ
إخاءٌ تساوىٰ فيه أنساً وألفةً ... رضيعُ صفاءٍ أو رضيعُ لبانِ
تمازجَ قلبانا مزاجَ أخوّةٍ ... وكلٌّ طَلوبىٰ غايةٍ أخَوانِ
وغيرُكَ ينبو عنه طرفي مجانباً ... وإنْ كان منّي الأقربَ المتداني
وَرُبَّ قريبٍ بالعداوة شاحِطٍ ... وَرُبَّ بعيدٍ بالمودَّة دانِ
إذا ما رعاكَ اللهُ يوماً فقد قضىٰ ... مآربَ قلبي كلَّها ورعاني

وهكذا، في كلّ قصيدةٍ مَدَحَ فيها الصابي الشريفَ الرضيَّ، ردّ عليه الشريف بقصيدة مدح مقابلة، ليؤكّد له مودّته، وأنّه يكنّ له وافر مشاعر الحبّ والإكرام .

ولم تقتصر رسائلهما الإخوانيّة علىٰ الشعر، بل خطَّا رسائل نثريّة، في تناغم جميل، عطّر الصفحات بألفاظ البلاغة والبيان، ففاح عبيرها بمعاني التسامح والعرفان.

من تلك الرسائل البديعة، قول الشريف الرّضيّ مخاطبا صديقه الصابي: " إذا كانت القلوب – أطال الله بقاء سيّدي الشيخ، وأدام عزّه وتأييده وسعادته ونعمته – تتناجىٰ بالمقة، والعيون تتلاحظ عن محض المودّة والثقة، والباطن في الصّفاء يصدّق العالن، والخافي في الوفاء يحقق الظاهر، ألغيت المعاذير بالعوائق التي تعوق عن المزاورة، والحواجز التي تحجز عن المواصلة، واعتمد علىٰ صفاء النّيّات، وصحيح أديم الطويّات . وكان الواحد منّا في الزّورة التي ينتهز فرصتها ويهتبل غرّتها، غير

مشكور ولا محمود، كما يكون في الانقطاع بكثرة الشغل وترادف الثقل، غير ملوم ولا معذول . وهذه جملة تنوب عن التفصيل، وقليل يكفي مؤونة التكثير، في العذر لتأخري عن حضرته، وقضاء ما يجب عليّ من حقه . والله تعالىٰ ينهضني لذلك، ويوفقني له، ويطيل لي بقاءه، ويمتعني به "[٥٠].

وجليّ ما تفيض به هذه الرسالة من مشاعر المحبّة والمودّة بين الرّجلين، ويلفت انتباهنا مناداة الشّريف للصّابي بـ" سيّدي الشيخ " ! واعتذاره عن التأخر عنه، وكثرة دعائه له، بأن يطيل الله بقاءه، ويديم عليه عزّه وتأييده وسعادته ونعمته ؛ كي يمتعه برفقته وجميل صحبته .

وقد جاء جواب الصابي، مماثلا لرسالة الابتداء، بالافتتاح بالدعاء، والتلطف بالخطاب، وإعلان التشوّق والتشوّف لرؤية الأحباب، يقول الصابي :

" وصلت رقعة سيّدنا الشريف النقيب، أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وعزّه وسموّه وعلوّه ونعمته، بادئة بالفضل والتفضل، وسابقة إلىٰ الكرم والتطوُّل، ولولا العلة التي قد أخذت بمخنّقي، وجثمت علىٰ مدارج نفَسي، لما أخللت بقصد حضرته، والمواظبة علىٰ خدمته، فالله سبحانه يعلم أنّ عيني ما تكتحل بغرّةٍ هي أعزّ من غرّته..."[٥١].

وعندما قبل عذره الشريفُ، وهذا ديدن المحبّ في معذرة حبيبه، وجّه اللوم إلىٰ نفسه، في التقصير بحق صديقه، وأقسم علىٰ تمكّن محبّته في صدره، محبّة ليس لأحد من الناس فيها شريك ! يقول الشريف :

" فتالله إنّه الحقيق بالعذر، وأنا الحقيق باللوم والعذل، إن لم يشهد لي قلبه بصدق الطويّة، ويحملني علىٰ باطن النيّة، ولِمَ لا وقد وضعنا قدمينا في قِبال[٥٢] واحد، واستهمنا في طارف من الأدب وتالد ؟ ووالله إنّني لأتمنّىٰ أن ينفرج له صدري، فيرىٰ

فيه مكانه المكين، وودّه المصون، اللذين لا يشاركه فيهما مشارك، ولا يملك موضعه منهما مالك "[٥٣].

ومن جميل تلطف الصابي مع صديقه الشريف، وإعجابه بأدبه المُنيف، رغبته في تقبيل يديه، مع أنّه أسنّ منه، وربّما كان في عمر أبيه ! وفي ذلك يقول : " فلو استطعت أن أسعىٰ إلىٰ أناملـه التي سطرت تلك البدائع، ورصفت تلك الجواهر، لفعلت مسارعا، حتىٰ أودعهنّ عن كلّ حرف قبلة، وأستلمهنّ جملة، إذ كنّ للفضائل معادن، وللمحاسن مكامن "[٥٤].

وإذا كانت محبّة بعض الأصدقاء تتعرّض للفتور أو الانقطاع، فإنّ محبّة الشريف الرضيّ وصديقه الصابي استمرّت طيلة حياتهما، فما زادتها الأيّام إلا تمكّنا ووثوقا، ليس هذا وحسب، بل لم تنقص شيئا بعد وفاة الصابي، وإنّما ازدادت، وازداد وفاء الشريف الرّضيّ لصديقه، فبكاه بكاء حارّا، كلما استبدّ به الحنين، ولوّعه الفراق، وهاجت به الذكريات، ورثاه شعرا ونثرا، كما في قصيدته الشهيرة التي بلغت اثنين وثمانين بيتا : " أعلمت من حملوا علىٰ الأعواد "، والتي تنبئ عن حرقة صادقة، وحزن عميق، فنالت إعجاب النقاد قديما وحديثا، حتىٰ قال الثعالبيّ : إنّها " قصيدة فريدة، أفصح بها عن بُعد شأوه في الشعر، وعلوّ محله في كرم العهد، لحسن ديباجتها، وكثرة رونقها، وجودة ألفاظها ومعانيها "[٥٥].

وسوف أقبس من هذه القصيدة بضعة أبيات، شاهدة علىٰ تسامح المسلم[٥٦]، حتىٰ مع من غيّبه الموت تحت الثرىٰ، لأنّ له حقا يجب حفظه، وذمّة يجب مراعاتها في حياته وبعد مماته، وهذا هو حال الشريف مع الصابي، حيث يقول[٥٧]:

أعلمتَ مَن حملوا علىٰ الأعوادِ ... أرأيتَ كيف خبا ضياءُ النادي

ما كنتُ أعلمُ قبل حطكَ في الثرىٰ ... أنّ الثرىٰ يعلو علىٰ الأطوادِ

لا ينفـدُ الـدمعُ الـذي تُبكـىٰ بـه ... إنّ القلـوبَ لـه مِـن الأمـداد
لا تطلبـي يـا نفـسُ خـلا بعـدهُ ... فلَمِثلُـهُ أعيـا علـىٰ المرتـاد
الفضـلُ ناسـبَ بيننـا إذ لـم يكـنْ ... شـرفي مناسـبَهُ ولا مـيلادي
إلا تكـنْ مِـن أسـرتي وعشـائري ... فلأنـتَ أعلقُهُـمْ يَـداً بـودادي
إنّ الوفـاءَ كمـا اقترحـتَ فلـو تكـنْ ... حيّـاً إذاً مـا كنْـتَ بـالمُزداد
فاذهـبْ كمـا ذهـبَ الربيـعُ وإثْـرُهُ ... بـاقٍ بكُـلِّ خمائـلٍ ونِجـاد

وجليّ هنا أنّه يكرّر معانٍ ذكرها من قبل، في المحبّة والإخاء والوفاء ... إلخ، ولكنّ الإشارة تجدر إلىٰ البيتين الخامس والسادس، اللذين أكّدا علىٰ أنّ اختلاف النسبِ، حتىٰ لو كان مردّه ينتهي بآل البيت الأطهار الأخيار، فإنّه لا يمنع من إخلاص الوداد، والاعتراف بالفضل، وهذا من حسن فهم الشريف لأخلاق الإسلام، وتعاليمه السمحة .

وليست تلك هي المرثيّة الوحيدة للشريف، بل رثىٰ صديقه في قصيدتين أخريين[٥٨]، عندما اجتاز بقبره ذات يوم، فحرّكت قيم الصداقة ما كمن في قلبه من مشاعر وأحاسيس، باتت حزينة علىٰ فقدان هذا الخليل، ففاضت دموعه، وجادت قريحته، ولكنّها أمانيّ، وأنّىٰ للأمانيّ أن تردّ غائبا، أو تعيد حبيبا صار تحت الثرىٰ ! يقول الشريف[٥٩]:

رثيتـكَ كـي أسْـلوكَ فـازددتُ لوعـةً ... لأنّ المراثـي لا تسـدُّ المرازيـا
وأعلـمُ أنْ لـيس البكـاءُ بنـافعٍ ... عليـكَ ولكنّـي أمنّـي الأمانيـا

وكان ممّا رثاه نثرا، رسالة كتب بها إلىٰ أحد أصدقائه، وفيها يقول :

" إنّه (الزّمن) كما لم يغيّر لي ودّه (الصابي) في حياته، رماني بالخطب الجليل من وفاته، وانتزعه من يديّ علىٰ حين انضمامهما علىٰ إخائه، وتشبّثهما بعقد صفائه،

وحصوله أخا في المودّة لصيقا، ونسيبا في الفضل عريقا، وإلىٰ الله أشكو دهرا حال دونه، وقطع ما بيني وبينه، وأفردني عنه إفراد الأمّ عن جنينها، والشمال عن يمينها.

وبحسب مولاي ورئيسي، أدام الله عزه، أنّ فقده أعرىٰ ظهري علىٰ كثرة حُماتي وأنصاري، وأوحدني علىٰ أقاربي وعشائري، وجرّعني من ثكله غصّة لا أزال أجد مرارتها في لهواتي، وأحسّ بألمها ما بين أضلاعي أبدا، ما أطيل لي في الأمد، وروخي لي من الطَّول، حتىٰ لقد ضاقت لذلك مفاسح قلبي، وضعفت حوامل جسمي، وحننت إلىٰ قرب الوفاة، وسئمت تكاليف الحياة . فتالله لقد بلغ منّي مبالغه الهمّ، واشتفىٰ منّي بنومه الدهر، وفجّعني به الخطب الهاجم بلا دليل، والوارد بلا رسول، وسقاه كأسا فضلتها مُعدّة لي بعده، ويا ليته صبّحني بها قبله "(٦٠).

لقد عدّ الشريف الرّضيّ موت صديقه الصابي، انتصارا للزّمن علىٰ صداقتهما، وجسّم رحيله بقوله : "وانتزعه من يديّ علىٰ حين انضمامهما علىٰ إخائه، وتشبّثهما بعقد صفائه"، وعبّر عن عمق الصّداقة بينهما في صور مختلفة، فشبّه نفسه بالأمّ الثكلىٰ" وأفردني عنه إفراد الأمّ عن جنينها"، وأنزل صديقه منزلة العضو من الجسم "والشمال عن يمينها "، وما أعجب حسرته علىٰ صديقه، ووفاءه لحبيبه، أن لم يعد لدنياه بهجة، فحنّ إلىٰ اللحاق به " حننت إلىٰ قرب الوفاة "، لا بل تمنّىٰ فداءه بنفسه "ويا ليته صبّحني بها قبله" !

ولمّا عبّر عن عميق وفائه لصديقه، قال :

"وإنّ ذهاب النظراء والأقران، وافتقاد الأتراب والأخدان، غصّة ما لغليلها بِلال، ولا لعليلها إبلال . فإلا يكن قريني سنّا ولِدة، فإنّه قريبي صفاء ومودّة، وإلا يكن موازني شرفا وحسبا، فإنّه مساهمي فضلا وأدبا .

ولقد تركني بعده أزداد من النّاس بعدا، وأمشي علىٰ الأرض وحشا، ومع ذلك، فما أخلو من تصوّره، ولا أخلو ساعة من تذكّره، إمّا بأن أرىٰ فاضلا لا يساويه في مكانه، ولا يجاريه في ميدانه، فأذكر إبراره علىٰ أمثاله، وتحليقه عن طبقاته، وإمّا بأن أرىٰ ناقصا، فأعجب من إيثار الزمان لمثله، وبيعه مثل ذلك العِلق النفيس به "[٦١].

ومضىٰ يعدّد فضائله، وجميل محاسنه، إلىٰ أن قال في آخر رسالته :

"ولو أردت تعديد مناقبه كلها، وإيراد مآثره بأسرها، لأتعبت أناملي، وكددت خواطري، وعجز الزمان عن إسعادي علىٰ استيفائها، ومعونتي علىٰ إحصائها وتعدادها، ولكنّه يكفي من جميع التأبين الذي أوردته، والرثاء الطويل الذي ردّدته، أن أقول : أبو إسحاق إبراهيم بن هلال، فلو كان اسم يوضع علىٰ جماع الفضل، ويكون علما لمجموع النبل، في زماننا هذا، لكان هذا الاسم، واستغني بذكره عن ذكر الثناء الجميل، واختصرت به مسافة القول الطويل "[٦٢].

وعنما لامه بعض النّاس، لكونه شريفا يرثي صابئيّا، قال : " إنّما رثيت فضله"[٦٣]، أي أنّ اختلاف الدّيانة، لم يكن سببا لنكران الفضل ! وكفىٰ بهذا الوفاء شاهدا علىٰ التسامح الدينيّ، في حضارة الإسلام، التي رفعت لواء : " لا إكراه في الدين " ؛ فسعد بفضلها الناس أجمعين.

خاتمة:

سعىٰ هذا البحث إلىٰ إبراز أثر القيم الاجتماعية للتسامح الديني في حياة أبي إسحاق الصابي وأدبه، بصفته أحد كبار الكتّاب والشعراء العبّاسيّين، الذين عاشوا في كنف الإسلام، وتنعّموا بتسامحه وعدله، ففاضت أقلامهم في التعبير عن معاني التسامح، والمحبّة، والإخاء الإنسانيّ.

وقد انتظم البحث في تمهيد وثلاثة مباحث :

جاء التمهيد في إثبات حقيقة أنّ التسامح الدينيّ عنوان للحضارة الإسلاميّة، بالدليل الواضح، من القرآن الكريم والحديث الشريف الصحيح، وأحداث التاريخ الإسلاميّ، بمختلف مراحله.

وجاء المبحث الأوّل في الحديث عن أثر القيم الاجتماعية للتسامح الديني في حياة أبي إسحاق الصابي، فأثبت أنّ هذا الرجل الصابئ، المتشدّد في ديانته، عاش آمنا مطمئنّا علىٰ عقيدته، ممارسا لشعائر دينه الذي رضي، وفي الوقت نفسه، كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، جزاء وفاقا، لا سيّما الأكابر من أدباء عصره، أمثال : الوزير المهلبيّ والصاحب بن عبّاد والشريف الرضيّ، حتىٰ كوفئ برئاسة ديوان الرسائل، اعترافا من المسلمين بعلمه وأدبه وفضله .

وجاء المبحث الثاني في بيان أثر القيم الاجتماعية للتسامح الديني في أدب أبي إسحاق الصابي، شعره ونثره، فوجدناه يخوض في مسائل العقيدة الإسلاميّة، موضحا لها ومفصّلا، ويُسهب في بيان فضائل الإسلام، وأخلاقيّاته الرفيعة، ومحاسن رسوله الكريم، صلىٰ الله عليه وآله سلم، حتىٰ ليظنه القارئ مسلما مؤمنا، لا يمتري بذلك ولا يشكّ !

أمّا المبحث الثالث، فتحدّث عن تلك المودّة الإنسانية العميقة، والعلاقة الأدبية الوثيقة، التي نشأت بين الشريف الرضيّ وأبي إسحاق الصابي، حتىٰ بعد ممات الأخير، فكانت صداقتهما ثمرة طيّبة للتسامح الدينيّ، ومظهرا للإخاء الإنسانيّ، يستحق الثناء، ويستوجب الاقتداء .

وخلاصة القول: إنّ التسامح الدّينيّ سبيل لا محيد عنه، إذا أرادت الإنسانيّة العبور إلىٰ التكامل الحضاريّ[٦٤]؛ لأنّ هذا التسامح عنوان للاعتراف بالآخر، والاعتراف بفضائله، وعنوان لتحضّر الإنسان، يقاس بمدىٰ احترامه لأخيه الإنسان، وهكذا هو المسلم الحقيقيّ، الفاهم لحقائق دينه وأخلاقيّاته السامية، وهكذا هي حضارتنا الإسلاميّة الزاهرة، حضارة العزة والتسامح والاعتدال!

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين (ت٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٦٦م (ط٢).
- الثعالبيّ، أبو منصور عبد الملك النيسابوريّ (ت٤٢٩هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق د. مفيد محمّد قميحة، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٩٨٣م (ط١).
- أبو حسّان، د. محمّد، دور الحضارة العربيّة الإسلاميّة في تكوين الحضارة الغربيّة : دراسة مقارنة مع الحضارتين اليونانيّة والرومانيّة، عمّان، وزارة الثقافة، ٢٠٠٩م (ط١).
- الحسنات، حمزة، أبو إسحاق الصابي : حياته وأدبه، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف د. ياسين عايش، الجامعة الأردنيّة، ٢٠٠٨م.
- الحمويّ، ياقوت (ت٦٢٦هـ)، معجم الأدباء : إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب، تحقيق د. إحسان عبّاس،بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، ١٩٩٣م (ط١).
- الخاقانيّ، د. عليّ، شعراء بغداد من تأسيسها حتىٰ اليوم،بغداد، مطبعة أسعد، ١٩٦٢م.
- الخطيب، د. شريف الشيخ صالح، السنن الإلهيّة في الحياة الإنسانيّة وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك،عمّان، الدار العثمانيّة، وبيروت، مكتبة الرشد، ٢٠٠٤م (ط١).
- أبو داود، سليمان الأزديّ السجستانيّ (ت٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمّد كامل قره بللي، بيروت، دار الرسالة العلميّة، ٢٠٠٩م (ط١).
- رحائم، د. سعاد، الحضارة الإسلاميّة : جذور وامتدادات، سلسلة كتاب الأمة، العدد ١٢١، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة، قطر، ١٤٢٨هـ.
- زكيّ، د. علاء الدين، المظاهر الحضاريّة في الرسائل الفنيّة في القرن الرابع الهجريّ، عمّان، دار النور المبين، ٢٠١٨م (ط١).
- زهرة، د. عطا محمّد، تكامل الحضارات بين الإشكاليّات والإمكانيّات، سلسلة كتاب الأمة، العدد ١٦١، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة، قطر، ١٤٣٥هـ.

- السعديّ، د. قيس، الشريف الرضيّ وأبو إسحاق الصابي : صداقة خلّدها التاريخ، موقع علىٰ الشبكة العنكبوتيّة:
https://arabic.balaghah.net/content/%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D9%8A%D9%81
- الشعيبيّ، د. أحمد قائد، وثيقة المدينة : المضمون والدلالة، سلسلة كتاب الأمة، العدد ١١٠، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة، قطر، ١٤٢٦هـ.
- الشكعة، د. مصطفىٰ، الأدب في موكب الحضارة الإسلاميّة : كتاب النّثر، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ١٩٧٤م (ط٢).
- الصابي، أبو إسحاق (ت٣٨٤هـ)، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، تحقيق شكيب أرسلان، بيروت، دار النهضة الحديثة.
- الصابي (ت٣٨٤هـ)، والرّضي (ت٤٠٦هـ)، رسائل الصابي والشّريف الرّضيّ، تحقيق محمّد يوسف نجم، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦١م.
- الصابي، أبو الحسن بن المحسّن (ت٤٤٨هـ)، الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار فرّاج، القاهرة، دار الآفاق العربيّة، ٢٠٠٣م.
- صفيّ الدين، د. بلال، مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب : دراسة تطبيقيّة، ضمن أوراق مؤتمر التسامح الدينيّ في الشريعة الإسلاميّة، كليّة الشريعة، جامعة دمشق، ٢٠٠٩م.
- الطبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تفسير الطبريّ : جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق د. صلاح عبد الفتاح الخالدي وإبراهيم محمّد العليّ، دمشق، دار القلم، وبيروت، الدار الشاميّة، ١٩٩٧م (ط١).
- العشّ، د. يوسف، روح الحضارة الإسلاميّة، مجلة حضارة الإسلام، العدد ١٠، دمشق، ١٩٦١م.
- القرضاويّ، د. يوسف، غير المسلمين في المجتمع الإسلاميّ، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٩٨٣م (ط٢).

- القلقشنديّ، أحمد بن عليّ (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا، تحقيق محمّد شمس الدين ونبيل الخطيب ويوسف طويل، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٧م.
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشيّ (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تقديم عبد القادر الأرناؤوط، دمشق، مكتبة دار الفيحاء، ١٩٩٤م (ط١).
- متز، آدم، الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ، ترجمة محمّد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، المركز القوميّ للترجمة، ٢٠٠٨م.
- المحبّيّ، محمّد أمين بن فضل الله بن محبّ الدين (ت١١١١هـ)، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق عبد الفتاح الحلو، بيروت، دار إحياء الكتب العربيّة.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم (ت٧١٠هـ)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٩٧م (ط١).
- هونكه، زيغريد، شمس العرب تسطع علىٰ الغرب : أثر الحضارة العربيّة في أوروبّة، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، عمّان، وزارة الثقافة، ٢٠١٣م.

الحواشي:

(١) رحائم، د. سعاد، الحضارة الإسلاميّة: جذور وامتدادات، سلسلة كتاب الأمة، العدد ١٢١، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة، قطر، ١٤٢٨هـ، ص١٣٥-١٣٦.

(٢) انظر: ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشيّ(ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تقديم عبد القادر الأرناؤوط، دمشق، مكتبة دار الفيحاء، ١٩٩٤م (ط١)، مج ١، ص٤١٦-٤١٧.

(٣) حديث حسن صحيح. انظر: أبو داود، سليمان الأزديّ السجستانيّ(ت٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمّد كامل قره بللي، بيروت، دار الرسالة العلميّة، ٢٠٠٩م (ط١)، ج٤، ص٦٥٨. حجيجه : خصيمه.

(٤) صفيّ الدين، د. بلال، مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب: دراسة تطبيقيّة، ضمن أوراق مؤتمر التسامح الدينيّ في الشريعة الإسلاميّة، كليّة الشريعة، جامعة دمشق، ٢٠٠٩م، ص١٨.

(٥) انظر: القرضاويّ، د. يوسف، غير المسلمين في المجتمع الإسلاميّ، ط٢، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٩٨٣م (ط٢) ص٤٣.

(٦) صفيّ الدين، مفهوم التسامح في الإسلام وصلته بمفهوم الواجب: دراسة تطبيقيّة، ص١٨.

(٧) انظر: الشعيبيّ، د. أحمد قائد، وثيقة المدينة: المضمون والدلالة، سلسلة كتاب الأمة، العدد ١١٠، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة، قطر، ١٤٢٦هـ، ص١٧١-١٩٢.

(٨) انظر: هونكه، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربيّة في أوروبّة، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، عمّان، وزارة الثقافة، ٢٠١٣م (ط١)، ص٤١٢-٤١٣. وانظر أيضًا: أبو حسّان، د. محمّد، دور الحضارة العربيّة الإسلاميّة في تكوين الحضارة الغربيّة : دراسة مقارنة مع الحضارتين اليونانيّة والرومانيّة، عمّان، وزارة الثقافة، ٢٠٠٩م (ط١)، ص٣٧٤-٣٧٦.

(٩) انظر: متز، آدم، الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ، ترجمة محمّد عبد الهادي أبو

ريدة، القاهرة، المركز القوميّ للترجمة، ٢٠٠٨م، ج١، ص٥٥-٦٧.

(١٠) العشّ، د. يوسف، روح الحضارة الإسلاميّة، مجلة حضارة الإسلام، العدد ١٠، دمشق، ١٩٦١م، ص٤٥.

(١١) انظر ترجمته المستفيضة : الثعالبيّ، أبو منصور عبد الملك النيسابوريّ (ت٤٢٩هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط١، تحقيق د. مفيد محمّد قميحة، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٩٨٣م (ط١)، م٢، ص٢٨٧-٢٩٢. الحمويّ، ياقوت (ت٦٢٦هـ)، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب، تحقيق د. إحسان عبّاس، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، ١٩٩٣م (ط١)، مج١، ص١٣٠-١٤٨.

(١٢) انظر : الصابي، أبو الحسن بن المحسّن (ت٤٤٨هـ)، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار فرّاج، القاهرة، دار الآفاق العربيّة، ٢٠٠٣م، ص٢٧٠. متز، الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ، ج١، ص٥٧-٥٨.

(١٣) ورد ذكر هذه الطائفة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع : سورة البقرة، الآية ٦٢، وسورة المائدة، الآية ٦٩، وسورة الحجّ، الآية ١٧. والصابئة ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارىٰ، وقيل هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلىٰ القبلة، وقيل يعبدون الكواكب والنجوم، وقيل هم طائفة من أهل الكتاب، وقيل لا دين لهم، والله تعالىٰ أعلم. انظر : الطبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تفسير الطبريّ : جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق د. صلاح عبد الفتاح الخالدي وإبراهيم محمّد العليّ، دمشق، دار القلم، وبيروت، الدار الشاميّة، ١٩٩٧م (ط١)، مج١، ص٢٥٣-٢٥٤.

(١٤) الثعالبيّ، يتيمة الدّهر، م٢، ص٢٨٨.

(١٥) لا تبرد: لا تفتر، من بَرَدَ أي سكن وفتر، يقال: جدّ في الأمر ثمّ برد أي فتر. انظر : ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم (ت٧١٠هـ)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٩٧م (ط١)، مادّة (برد)، مج١، ص١٨٦.

(١٦) الثعالبيّ، يتيمة الدّهر، م٢، ص٢٨٨-٢٨٩.

(١٧) نفسه، م٢، ص٢٨٩.

(١٨) الخطيب، د. شريف الشيخ صالح، السنن الإلهيّة في الحياة الإنسانيّة وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، عمّان، الدار العثمانيّة، وبيروت، مكتبة الرشد، ٢٠٠٤م (ط١)، مج١، ص١٠٤.

(١٩) انظر: الحسنات، حمزة، أبو إسحاق الصابي: حياته وأدبه، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف د. ياسين عايش، الجامعة الأردنيّة، ٢٠٠٨م، ص٢٢-٤٥.

(٢٠) الثعالبيّ، يتيمة الدّهر، م٢، ص ٢٨٩.

(٢١) هو أحد أنواع القوارب المستخدمة في ذلك العصر.

(٢٢) الحمويّ، معجم الأدباء، مج١، ص١٣٣-١٣٤.

(٢٣) الثعالبيّ، يتيمة الدّهر، م٢، ص٢٩٢.

(٢٤) انظر، نفسه، م٢، ص٣٢٦. الصابي، أبو إسحاق (ت٣٨٤هـ)، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، تحقيق شكيب أرسلان، بيروت، دار النهضة الحديثة، ص٤٠٤-٤١١.

(٢٥) المحبّيّ، محمّد أمين بن فضل الله بن محبّ الدين (ت١١١١هـ)، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق عبد الفتاح الحلو، بيروت، دار إحياء الكتب العربيّة، ج٣، ص٤٠٤.

(٢٦) زيادة يقتضيها السّياق، ولم ترد في الأصل.

(٢٧) اللاحب : الواضح، البيِّن. ابن منظور، لسان العرب، مادّة (لحب)، مج٥، ص٤٨٠

(٢٨) الصابي، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، ص١٦٣.

(٢٩) الجوالي : الطوّافون لجمع الجزية. ابن منظور، لسان العرب، مادّة (جول)، مج١، ص٤٩٠.

(٣٠) الصابي، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، ص٢٠٢.

(٣١) الجِران : مقدّم عنق البعير من المذبح إلىٰ المنحر، فإذا برك البعير ليستريح فمدّ عنقه علىٰ الأرض، قيل ألقىٰ جرانه، وفي حديث عائشة، رضي الله عنها، حتىٰ ضرب الحق بجرانه، أرادت أنّ الحق استقام وقرّ في قراره، ويكثر استعمال هذه الجملة بمعنىٰ الاستقرار. ابن منظور، لسان العرب، مادّة (جرن)، مج١، ص٤١٤.

(٣٢) انظر : الصابي، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، ص١٩-٢٤ وانظر أيضاً : ص٦٤-٦٧، ١٢٠-١٢٢.

(٣٣) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين (ت٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٦٦م (ط٢)، مج٣، ص١٠٩.

(٣٤) الصابي، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، ص١٤٤-١٤٨.

(٣٥) الطريق المهيع: الواضح الواسع البيّن. ابن منظور، لسان العرب، مادّة (هيع)، مج٦، ص٣٧٨.

(٣٦) الصابي، المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي، ص١٤٩.

(٣٧) نفسه، ص١٤٩-١٥٠.

(٣٨) نفسه، ص١٥٠-١٥١.

(٣٩) الثعالبيّ، يتيمة الدهر، م٢، ص٣٢٧-٣٢٨.

(٤٠) الشانئ : المبغض. الأبتر : الأقطع الذي لا ولد له. قروم الجمال : صغارها. قروم الملوك : السادة المعظمون. نفسه، م٢، ص٣٣٠.

(٤١) انظر حول مصطلح " الصورة الفنيّة النموذجيّة العليا "، زكيّ، د. علاء الدين، المظاهر الحضاريّة في الرسائل الفنيّة في القرن الرابع الهجريّ، عمّان، دار النور المبين، ٢٠١٨م (ط١)، ص٣٨٤-٣٩٣.

(٤٢) الشكعة، د. مصطفىٰ، الأدب في موكب الحضارة الإسلاميّة : كتاب النّثر، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ١٩٧٤م (ط٢)، ص٥٢٧.

(٤٣) الصابي (ت٣٨٤هـ)، والرّضي (ت٤٠٦هـ)، رسائل الصابي والشّريف الرّضيّ، تحقيق محمّد يوسف نجم، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦١م، ص٢٧-٣٠. أَلِكني : كن رسولي وتحمّل رسالتي. الألوكة : الرسالة. ابن منظور، لسان العرب، مادّة (لوك)، مج٥، ص٥٣٧.

(٤٤) روىٰ الثعالبيّ أنّ بين هذه القصيدة وموت الصابي اثنا عشر يومًا، ثم قال : " ولعلها آخر شعره "، وهكذا يكون الصابي قد ختم بلاغته بهذه الصداقة الرائعة ! الثعالبيّ، يتيمة الدهر، مج٢، ص٣٥٩.

(٤٥) الخاقانيّ، د. عليّ، شعراء بغداد من تأسيسها حتىٰ اليوم، بغداد، مطبعة أسعد، ١٩٦٢م، مج١، ص١٦٣.

(٤٦) الصابي، والرّضي، رسائل الصابي والشّريف الرّضيّ، ص٣٤-٣٦.

(٤٧) السعديّ، د. قيس، الشريف الرضيّ وأبو إسحاق الصابي : صداقة خلّدها التاريخ، موقع علىٰ الشبكة العنكبوتيّة:

https://arabic.balaghah.net/content/%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D9%8A%D9%81

(٤٨) الصابي، والرّضي، رسائل الصابي والشّريف الرّضيّ، ص١٧.

(٤٩) نفسه، ص٢٣-٢٦.

(٥٠) نفسه، ص٧٧.

(٥١) نفسه، ص٨٠.

(٥٢) القِبال : زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين الإصبعين. ابن منظور، لسان العرب، مادّة (قبل)، مج٥، ص١٩٤. وقوله : " وضعنا قدمينا في قِبال واحد " كناية عن الاتحاد والملازمة.

(٥٣) الصابي، والرّضي، رسائل الصابي والشّريف الرّضيّ، ص١٠٠-١٠١.

(٥٤) نفسه، ص ٩٤.

(٥٥) الثعالبيّ، يتيمة الدهر، مج٢، ص٣٦٢.

(٥٦) مع أنّ أبيات القصيدة كلها شاهدة علىٰ التسامح الدينيّ.

(٥٧) انظر : الصابي، والرّضي، رسائل الصابي والشّريف الرّضيّ، ص٤٥-٥٤.

(٥٨) نفسه، ص٥٦-٦٢.

(٥٩) نفسه، ص٦٠.

(٦٠) نفسه، ص١٠٥-١٠٦.

(٦١) نفسه، ص١٠٧-١٠٨.

(٦٢) نفسه، ص١١١.

(٦٣) القلقشنديّ، أحمد بن عليّ (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا، تحقيق محمّد شمس الدين ونبيل الخطيب ويوسف طويل، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٧م، م١، ص٧١.

(٦٤) انظر: زهرة، د. عطا محمّد، تكامل الحضارات بين الإشكاليّات والإمكانيّات، سلسلة كتاب الأمة، العدد ١٦١، إدارة البحوث والدراسات الإسلاميّة، قطر، ١٤٣٥هـ، ص١٢١-١٢٢.